

مُلَاحَظَاتٌ مِنْهَجِيَّةٌ حَوْلَ الْدِرَاسَاتِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ فِي الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ

الدكتور محمد عبد المولى (تونس)

اقتصر هذا المعهد في البداية على البحث في العلوم الجنائية كعلم الجريمة وعلم كشف الجريمة ، وعلم العقاب ليصبح بعد ذلك سنة 1960 « المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ». وانطلاقاً من هذا التاريخ أصبح المعهد يعني بالعلوم الاجتماعية بمعناها المعروف ، ومعنى بذلك علم الاجتماع ، وعلم النفس ، وعلم الأنثروبولوجيا الاجتماعية (1) .

— وتأسست ، حوالي سنة 1962 ، دائرة لعلم الاجتماع في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة اللبنانية ويمكن للطالب أن يتخرج منها بالإضافة في علم الاجتماع .

— وفي تونس تأسس فرع خاص بالعلوم الاجتماعية سنة 1964 ... كما تأسس مركز للبحوث الاجتماعية إلى جانب مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية (C.E.R.E.S.) ومن المعلوم أن هذا المركز يضم إلى جانب البحوث الاجتماعية شعباً عديدة مثل شعبية الآسنسنة والحقوق والاقتصاد والديمقراطية . ومن ميزة هذا المركز — الذي كان يتلقى اعانة مالية من مؤسسة فورد الأميركيه حتى سنة 1971 — أنه يهتم بالبحوث الميدانية وخاصة في الحقوق الاجتماعية والديمقراطية (2) .

إن مجتمعنا العربي الإسلامي ، والمجتمع العربي جزء منها ، في أشد الحاجة إلى دراسات اجتماعية لجميع مشاكلها ومؤسساتها ونظمها وقطاعات حياتها الاقتصادية والسياسية والثقافية ...

فالباحث العلمي الاجتماعي يعد في الواقع تقليداً جديداً في مجتمعنا ، وليس للعرب فيه اسهام حديث يستحق التذكر . هذا اذا استثنينا العالمة العربي عبد الرحمن بن خلدون (1332 - 1406) الذي كرسنا له ، خارج هذا المعرض بحثاً خاصاً .

للم يصل ، إلى علمنا ، إن أحد الباحثين العرب تمكن من ربط تراثنا العلمي العربي في حقل الدراسات الاجتماعية والسياسية بالحركات الفكرية والعلمية في العالم ، وخاصة ربط هذا التراث بحقول علم الاجتماع ، وعلم النفس الاجتماعي ، والأنثروبولوجيا الاجتماعية ..

ان محاولات اجراء البحوث الميدانية والعلمية في حقول علم الاجتماع (سوسيولوجيا) وعلم النفس الاجتماعي ، في المجتمع العربي ، ما تزال في بدايتها ..

— غالباً نسبة لجمهورية مصر العربية ، نمان البحث الاجتماعي ما زال في بداية المحاولة وليس له جذور راسخة ... ويعتبر انشاء المعهد القومي للبحوث الجنائية عام 1956 نقطة الانطلاق في هذا المجال :

(1) انظر : الدراسات الاجتماعية . وتطوير المجتمع للسيد ياسين . (الطبعة — العدد العاشر — اكتوبر 1971 — من 95 - 100) ص 95 و 96 .

(2) انظر مشاريع البحث العلمي في نشرتين خاصتين : (1969 و 1970) . (I.P.S.E.J.E.S.), 23, rue d'Espagne.

1) Programme des Travaux de Recherche - 1970 (C.E.R.E.S.), 23, rue d'Espagne.
2) Programme des Travaux de Recherche -

2 - اقتصر الجيل الأول من الباحثين وأساتذة علم الاجتماع - وكان تكوينهم في الغالب فلسفياً على تدريس علم الاجتماع (سوسيولوجيا) ، على غرار التقليد الفرنسي الذي تهتم شديد الاهتمام بالمقارنة بين الأفكار والمدارس السوسيولوجية ، مقارنة تفتقر إلى الدراسات الميدانية والواقعية ... وانصب جزء كبير من اهتمامهم على شرح أعمال المدرسة الدوركايية (1) ابتداءً من مؤسسها أميل دوركيم ومروراً بأعمال غوكوني (2) عن المسؤولية وسلامتين بوتلي (3) في كتاباته عن المساواة ، والديمقراطية أمام العلم وريبني هيربر (Hubert) (1885 - 1954) في قواعد السلطة في الديمقراطية .. ودراسات ليفي بيريل الانثروبولوجية ... الخ .

وقد اقتصر هؤلاء الأساتذة والباحثون الرواد : كما فعل زملاؤهم في أمريكا اللاتينية على النقل دون الفحص والتفسير والتوصيل . وهذا يعني أن هؤلاء جميعاً لم يهتموا بربط النظريات الاجتماعية بالظروف الاقتصادية والسياسية التي نشأت وتعمرت في ظلها ، فلا يمكن بأية حال من الأحوال أن نفهم مدرسة أميل دود كيم إلا في ضوء أوغست كونت (4) الذي هو الآخر لن يفهم في معزل عن ظروف مصر الذي عاشه : مثلاً الصراع بين البرجوازية والطبقات الكادحة على مستوى حركة المجتمع ، وبين الإيجابية الوضمية (Positivism) والاشتراكية على مستوى الصراع الأيديولوجي .

ان الدراسات داخل هذا الإطار تساعدها كثيراً على فهم أوغست كونت وبالتالي أميل دوركيم .

ويقول كاتب معاصر في هذا الصدد : « عجز هذا الجيل عن تقديم منظور سوسيولوجي للمعرفة يربط بين الفكر وبين البناء الاجتماعي برباطوثيق ، وبالتالي قدم الفكر السوسيولوجي الفرنسي معزولاً عن جذوره ، وبكل ما يتضمنه من تحيزات أيديولوجية صارخة ، لم يكن الغرض منها سوى الحفاظ على مصالح الطبقة البرجوازية الأروبية ، وأهم هذه التحيزات ضرورة الفصل بين القيم والواقع ، ومنع

- ومنذ سنوات قليلة تأسست جمعية جزائرية للدراسات الديمغرافية والاقتصادية والاجتماعية Aardes التخطيط والاتصال الوطني . كما أكد لي ذلك مديرها - وأعمال هذه الجمعية لا تبعد أن تكون جمع المعلومات الحيوية وأحصاءها وفرزها .. حول ناحية معينة أو موضوع معين كالملكية الخاصة ، أو الاستهلاك العائلي ، أو أحصاءات تتعلق بالسكان .. الخ حيث ليس هنا بحث اجتماعي بالمعنى العلمي للكلمة . - وفي المغرب الأقصى أنشئ معهد العلوم الاجتماعية ثم الحق بكلية الآداب .

اما دائرة العلوم الاجتماعية في جامعة الجزائر، فحكم حداثة سنها لا اشعاع علمي لها .. ربما ذلك راجع الى قلة الباحثين وأساتذة الافتاء .. وفي سنة 1967 تأسس قسم خاص بعلم الاجتماع في جامعة بغداد .

هذه هي ، باختصار محاولات الاعتناء بالبحوث الاجتماعية ، وهي تجربة لا تزال تلتقط طريقها إلى النمو والأصالحة والإبداع .

ولا يسعنا أمامها إلا أن نبدي الملاحظات المنهجية التالية :

1 - ان اللغة الأساسية لتدريس العلوم الاجتماعية والبحث العلمي الاجتماعي ، في كليات ومعاهد الشرق العربي هي اللغة العربية .. إلى جانب لغات أجنبية مساعدة .

اما اقطار المغرب العربي ، فإن الفرنسية هي المعتمدة كأساس للتدرس والبحث في حقول الدراسات الاجتماعية ، نستثنى من ذلك دائرة العلوم الاجتماعية بجامعة الجزائر التي قطعت خطوات موقعة في تعريب العلوم الاجتماعية . ومن المأمول أن نلاحظ أن جل الباحثين في علم السوسيولوجيا بتونس والمغرب الأقصى ، عندهم جهل يكاد يكون تاماً باللغة الوطنية والتراث الشعبي ، وبالتالي بلغة المجتمع ورموزه و تاريخه ...

| | |
|----------------------------|-----|
| Emile Durkheim (1858-1917) | (1) |
| Paul Fauconnet (1874-1938) | (2) |
| Célestin Bouglé | (3) |
| Auguste Comte (1793-1857) | (4) |

الظاهر بطبعتها ورموزها ولغتها ، وحركيتها وتفكيرها الديني ، — استعملوا طرائق منهجة قد تكون مبالغة لدراسة مجتمعاتهم ، والتطور التاريخي والاجتماعي والفكري لها — فإذا ما تهافت الباحثون العرب وخاصة في المغرب العربي — الا من رحم ربك — على هذه الدراسات التي وضعها الأجانب عن المجتمع العربي وتاريخه ، فإنهم يفقدون بذلك موضوعية بحثهم ويرتكبون بذلك ، خطأ منهجيا ، خطير العواقب (1) .

لابد اذن ، والحالات هذه ، من إعادة النظر في دراسات الأوروبيين والأجانب من مستشرقين ومن دار في فلكهم من أساتذة ودكتورة ، ان عدم ثقتنا بأنفسنا وتخلصنا العلمي والتكنولوجي ، والاقتصادي قد حبب البناء كل ما هو أجنبي « إلى حد أن هناك جماعات تعتقد ، كما أكد علال الفاسي ، أن الخير كل الخير هو في تقليد أروبا الغربية ، وأمريكا السكسونية ، وروسيا السلانية ، والمانيا الجermanية » .

5 — ان التقليد الفرنسي في علم الاجتماع ، جعلت جل الدراسات الاجتماعية مبنية على مبدأ الحياد وتعلمه الموضوعية ، وهذا الموقف لا يمكن ان يفسر الا بتطور المجتمع الأوروبي نفسه . ذلك ان المجتمعات الأوروبية — والمجتمع الفرنسي جزء منها ، — قد تأثرت بمؤثرات وحفت بها ملابسات ، ما عاشتها المجتمعات العالم الثالث ، والمجتمعات العربية الإسلامية خاصة : مرت هذه المجتمعات (الفرنسية الرأسمالية) بعصور الاقطاع والجهل والظلم ، الى عصور الثورات التي عصفت وما تزال : فمن ثورة فكرية في القرن السابع عشر ، الى ثورة سياسية في القرن الثامن عشر ، الى ثورة اقتصادية في القرن التاسع عشر الى ثورة اجتماعية في بداية القرن العشرين كل هذه الثورات بمذاهبها المختلفة وملابساتها الخاصة جعلت للمجتمع الأوروبي تركيزات وانظمة خاصة بها ، وبالتالي تفكيرا اجتماعيا وسوسيولوجيا خاما . ولا يتسع المجال هنا لعرض تطور الفكر الاجتماعي في أروبا (2) : بل نشير فقط الى ان علم الاجتماع قد ولد بصفة رسمية في أروبا في القرن التاسع عشر ، (وفي الوطن العربي في القرن الرابع عشر على يد العلامة

الباحث الاجتماعي من تقييم الظواهر الاجتماعية او الحكم عليها نزولا عن رغبة « موضوعية » العلم و « حياده » .

3 — وبعد سنوات جاء جيل من الأساتذة والباحثين العرب فأدخلوا ، لأول مرة ، في البيئة العلمية العربية مناهج وطرائق البحث الاجتماعية الميداني ، وشرعوا في تطبيقها على نطاق محدود جدا لا يتعذر الدراسات والبحوث ، للحصول على درجة الدكتوراه او في صورة اعداد بحوث جزئية لدراسة موضوعات خاصة .

ومن الملاحظ ، في هذه المرحلة بالذات ، تأثر الباحثين والأساتذة العرب ، أو جلهم على الأقل ، بالمنهج الفرنسي وبأدوات البحث المستعملة في الغرب الرأسمالي وكان من الصعب ان تتغير النطنة النظرية لدى الباحث الاجتماعي العربي حتى يكشف عن الجذور الأيديولوجية التي يزخر بها علم الاجتماع .

ولم يكن من المبين ، في هذه المرحلة الانتقالية على الباحثين العرب هضم ما درسوه في الشرق او في الغرب ، والاستقلال بوضع طرائق علمية وعلم اجتماع عربي — اسلامي له اساليبه وطرائقه لدراسة الواقع المجتمعات العربية — الاسلامية ، ببيانها وطبقاتها الاجتماعية ومشاكلها ومؤسساتها ، وفي تحليل هذا الواقع بما احتوى عليه من قيم غنية خالدة ، الى جانب ما تضمنه من فوضى وتناقض ، صنعت بعضها ، عصور الانحطاط والظلم ، وصنع بعضها الآخر التخلف الفكري والمادي طوال الاحتلال الاستعماري في العصر الحديث .

4 — ان استعمار المناهج المستوردة في دراسة المجتمعات العربية الإسلامية : دون نظر الى طبيعتها الخاصة وظروفها وتطورها التاريخي والسياسي والاقتصادي ، ورموزها وحركيتها ، هو خطأ منهجي في منتهى الخطورة . انه مصدر سوء التفاهم والخلط الذي كثيرا ما يحدث في استعمال المناهج العلمية في غير ما وضعت له . واذ عدم الباحثون الأجانب ، الى درama المجتمعات العربية الإسلامية ، رغم جهودهم

(1) انظر بحثنا عن التحليل العلمي الشامل ... اللسان العربي — المجلد السابع الجزء الاول — يناير 1970
الرياط . ص . 342 — 349 .

(2) انظر كتابا مبسطا لبوطول وهو مغرب :

بعد ، اسس علم الاجتماع الفرنسي . لقد وصلت مقومات فكرة علم الانسان هذه الى سان سيمون ، عبر الفلسفة المثاليين والاطباء . واحد هؤلاء الاطباء هو الدكتور بيردان (Dr Burdin) الذي اوحى الى سان سيمون بأن يكتب علم الاجتماع بعلم ايجابي - وضعي ، وكأنه علم الحياة العضوية (Physiologie) اما اوغست كونت ، فابتدا اول الأمر بتسمية علم الطبيعة الاجتماعي كما فعل سان سيمون قبله ، والقصد من هذه التسمية ، هو المناداة بقيام علم جديد يكون على غرار علم الموجودات الطبيعية (Sciences naturelles) (Généralité دراسة الاحداث الاجتماعية) ويتجانس مع بقية اقسام الطبيعة . وفي سنة 1835 تمكن الفلكي البلجيكي كاتلي من نشر تأليف عنوانه : « الانسان وتطور ملائكته » او في سبيل ميزياء اجتماعية ، ثم اعاد نشره سنة 1860 تحت عنوان « فيزياء اجتماعية » (2) (Physique sociale) كانت منهجة كاتلي في كتابه الانف الذكر تعتمد على معلومات مختلفة ديمغرافية واحصائية في دراسة الجريمة مثلا . وقد انتفع له من خلال البحث واللاحظة ان القوانين التي تظاهر في المجتمع ، تخضع لنفس النظام الذي تخضع له القوانين في الطبيعة . وقد توصل عبد الرحمن ابن خلدون ، قبل كاتلي بقرن ، الى نفس الملاحظة ، اذ قال : « شأن المجتمع في ذلك (النوميس والعلل) شأن عالم الطبيعة وناموس العلة واحد تقهما (3) .

اما اوغست كونت فكان ينتهج طرائق مغايرة ، وهي ان هناك انقطاعا بين علوم الطبيعة والعلوم الاجتماعية ، وبالاضافة الى كراهيته الشديدة للاحصاءات وحساب الاحتمالات ، رفض ان يسمى هذا العلم العلم الجديد بالفيزياء الاجتماعية واختار له اخيرا اسما آخر هو علم الاجتماع (Sociologie) ، وذلك لأسباب شخصية بينها في كتابه : « دروس في الفلسفة الايجابية » (4) .

عبد الرحمن ابن خلدون) ، لكن لا بد من الرجوع الى القرن السادس عشر لنعرف « ان ازمة المؤسسات السياسية والدينية والتربوية قد أدت الى خلق علم اجتماعي لم ينضج بعد ، ولكنه كان نقديا على اية حال ، للنظام السائد والافكار التي تؤيده . مثلا : قام رابلي ، قبل الثورة الفرنسية (1789) ب النقد اجتماعي كما قام مونتاني (Montaigne) بتحليل عملية جعل الثقافة والعلم والتربية ، لائقية ، يعني ان التربية ، بعد ان كانت جهازا تابعا للكنيسة ، تصبح شيئا مشينا جهازا تابعا للدولة . وقد قال ما معناه : « ان العلاقة بين الكنيسة والدولة او العلاقات بين الكاثوليك والمدارس اشكال الدولة في اروبا ، وعلاقات الكاثوليك والمدارس والمؤسسات ، وكذلك علاقة العائلة بالكنيسة ... يجب ان تقلب رأسا على عقب وذلك حسب عملية انتقال لها جميع خصائص الزلازل الأرضية (او السماوية) . ان هذا التحليل والموقف الانجلياري لا يبعد ان يكون ، في ذلك الوقت ، محاولات انتقادية اشبه ما تكون بالأدب الساخر . نظرا لفقدان الكشوف الميدانية والاحصاءات .. (1) »

6 — ومن المتألف ، في تاريخ الفكر الاجتماعي الحديث ان علم السوسيولوجيا قد ولد في نفس الوقت الذي اخترع له اوغست كونت (1798 - 1857) هذا الاسم (Sociologie) في اغلب الاحيان ينسى ان هذه التسمية قد وضعت كرد مضاد لمؤسس آخر وهو كاتلي (Quetelet) عندما كان اوغست كونت سكرتيرا خاصا لهنري سان سيمون (H. de St Simon) (1760 - 1825) الذي استوحى « فكرة علم الانسان » من كتاب دائرة المعارف ، ولا شك ، ان لهم أهمية مئوية في عصر سان سيمون : كانوا اول من عمل على جمع العلوم في مؤلف واحد ، بعد ما اكدوا وحدة المعارف الاجتماعية ، ثم توصلوا الى وجوب فصل النظرية عن الواقع ، وهذا الفصل أصبح ، فيما

1) انظر كتاب :

Clefs pour la Sociologie, Seghers, Paris 1971 (par Georges Lapassade et René Lourau), p. 25

Sur l'homme et le développement de ses facultés, ou essai de physique sociale. (2)

408 ص : 3) انظر : المقدمة (في النصوص الفلسفية الميسرة) لكمال اليازجي .

252 ص : 4) الجزء الرابع ، الدرس 47 .